السلاجقة بعد عهد ملكشاه

تعرضت دولة السلاجقة العظام، بعد وفاة ملكشاه في عام (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م) للانقسام والضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين أولاده[٤]. وقد انعكس ذلك على أوضاع الخلافة العباسية التي تصرفت وفق ما تمليه مصلحتها للانعتاق من الطوق السلجوقي. فوقفت موقف المتفرج أحياناً من هذه النزاعات، في حين تأرجحت باعترافها بين مراكز القوة أحياناً أخرى، وأحياناً كانت تمنحه لأكثر من شخص، في وقت واحد، أو للغالب؛ في محاولة لضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض.

فانتهز الخليفة المسترشد ومن أتى بعده من الخلفاء، هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما كان للخلافة من سلطات[٥] وساعدهم على ذلك ابتعاد السلاجقة العظام عن بغداد بحيث أضحى الخليفة بعيداً عن تأثير النفوذ المباشر للسلطان السلجوقي، وقد سار هذا الخليفة خطوات في هذا الطريق إلاّ أنه في النهاية ذهب ضحية محاولته[٦] ثم استطاع المقتفي في السنوات الأخيرة من حكمه، أن يحقق جزءاً كبيراً من الهدف الذي أخفق المسترشد في تحقيقه مستغلاً تطور الأوضاع السياسية لغير مصلحة السلاجقة.

ففي عام (٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م)، انهزم السلطان سنجر، آخر السلاطين السلاجقة العظام، أمام القراخطائيين. كما تجدّدت الخلافات السلجوقية الأسرية في كل من خراسان والعراق في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م).

---

(٤) كان من بين نتائج هذه الخلافات أن انفصل السلطان محمود بن ملكشاه بحكم العراق، مؤسساً بذلك دولة سلاجقة العراق التي انفصلت عن دولة السلاجقة العظام التي حكمت في خرسان وإيران.

(٥) Arnold: The Caliphate: P 80.

(٦) حاول الخليفة المسترشد أن يستفيد من النزاع الذي كان محتدماً بين السلطان طغرل بن محمد وأخيه السلطان مسعود. راجع حول هذه الأحداث ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٩.

هذا في الوقت الذي أخذ الخليفة يقوّي مركز الخلافة من الناحية العسكرية. فامر العامة. بجمع السلاح، وحفر الخنادق حول بغداد وأصلح أسوارها[1].

ويُعتبر عام (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م) البداية الفعلية لانتعاش الخلافة العباسية، وكان ذلك نتيجة عجز السلطان مسعود السلجوقي حاكم العراق، عن إخضاع أمراء الأطراف الذين ثاروا عليه، مما أعطى الخليفة فرصة النهوض بالدولة.

ولما توفي السلطان مسعود في عام (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م)، فقدت الدولة السلجوقية في العراق، ركناً كبيراً. فأصابها الوهن، وأخذت بالتداعي، وعمّتها الاضطرابات، مما أدّى إلى تقلص النفوذ السلجوقي في العراق شيئاً فشيئاً حتى زال في النهاية.

كان أول عمل قام به الخليفة المقتفي، بعد وفاة السلطان مسعود، هو أنه استولى على ممتلكات شحنة بغداد، وعزل الموظفين الذين ولاّهم السلطان، وعين بدلاً عنهم موظفين يثق بهم[2]، ثم جّهز جيشاً حارب به شحنة بغداد وهزمه واستعاد منه الحلة والكوفة وواسط[3].

وانتهج الخليفة سياسة ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض للاستفادة من انقسام أمراء البيت السلجوقي، فولّىٰ في عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م) سليمان شاه بن محمود سلطاناً على العراق، كما عقد لأخيه ملكشاه بولاية العهد، ثم سيَّرهما إلى همذان لقتال السلطان محمد الثاني[4].

ازدادت أوضاع دولة سلاجقة العراق تدهوراً بعد وفاة محمد الثاني في عام (٥٥٤ هـ/ ١١٥٩ م). وقد حاول خلفاؤه إعادة نفوذهم السابق، لكنهم جوبهوا بمعارضة الخلفاء القوية وقد عبّر المؤرخ السلجوقي البنداري عن هذا الموقف المتداعي بقوله: «ووقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة، ومن حصولها الخيبة، فلم يقدم

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٢.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٩ ص ٣١ ـ ٣٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢.
(٤) الراوندي: ص ٣٨٢. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٤٨ ـ ٤٩.

ملك إليها ولا سلطان عليها»[1].

واستمر الخلفاء في النضال للتحرر من الطوق السلجوقي حتى تحقق لهم الاستقلال التام عن السلاجقة في عهد الخليفة الناصر حيث وصلت سلطة ونفوذ الخلافة المتجددة إلى الأوج. وتلاشت السلطة السلجوقية من العراق وغربي فارس، لكن محاولات الخلافة فرض سلطتها على فارس، أثبتت إخفاقها رغم أنها نجحت في استعادة الأهواز.

زالت دولة السلاجقة العظام في عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م). بمقتل السلطان سنجر على أيدي الغز في حين زالت دولة سلاجقة العراق في عام (٥٩٠ هـ/ ١١٩٤ م) بمقتل السلطان طغرل الثالث على يد علاء الدين تكش خوارزمشاه[2]. ونتيجة لهذا التطور دخلت دولة الخلافة العباسية في فترة استقلال فعلي دامت حتى عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)[3].

---

(١) البنداري: ص ٢٦٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٥٥ ٢٣٠.

(٣) الزهراني: مرجع سابق: ص ٦٧.